

علماء  
العرب



# ابن خلدون

أبو علم الاجتماع



تأليف : سليمان فياض  
رسوم : اسماعيل دياب

مركز الأهرام  
للترجمة والنشر





مكتبة جامعة القاهرة

علماء  
الحرب

# ابن خلدون

أبو علم الاجتماع



سليمان فياض





## أحبّوا بعضكم

غادر الصّبي « عبد الرحمن » مسجد القبة الجامع في  
تونس ، مع أبيه « محمد » . واجتازا معاً شوارع المدينة ، حتّى  
بلغا شارع « ثرية الباي » ، ودخلاً معاً بيت « آل خلدون » .

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر

مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة

تليفون : ٧٤٨٢٤٨ - تللكس : ٩٢٠٠٢ يوان



كان بيتاً كالقصر . وكان في انتظارهما للغداء : أم عبد الرحمن ، وإخوته : محمد ، ويحيى ، وعمر ، وموسى . والتفوا معاً حول المائدة .

والتفت الأب « محمد » قائلاً لبيه بسعادة :

— أخوكم عبد الرحمن له صوت جميل . أنصت له الجميع ، وهو يقرأ آيات الله في مسجد القبة .

وابتسم « عبد الرحمن » ولم يقل شيئاً . وعاد الأب يقول لبيه :

— لا ينافس جمال صوت أخيكُم ، سوى جمال خطه ، وقوة ذاكرته ، وحفظه التام لكل قراءات القرآن السبع .

كان « يحيى » هو أكثر إخوة « عبد الرحمن » حباً له . كان أصغر منه . وما كان يحبه فيه هو أنه لم يره غاضباً قط ( أبداً ) . ولم يره فرحاً بنجاح ، أو حزيناً لفشل . قال « يحيى » :

— سيكون لأخي عبد الرحمن شأن كبير في يوم من الأيام .

وتأثر الأب بما قاله « يحيى » ، وقال لبيه :

— هذا هو الحب يابنائى . ما قاله « يحيى » عن أخيه هو حب له . فتذكروا ذلك . أحبوا بعضكم البعض . وكونوا يداً واحدة في كل الظروف . وتذكروا دائماً : أن أحداً لن يأخذ من الدنيا أكثر مما قدره الله له .

## آل خلدون

كانت عائلة « آل خلدون » عائلة نبيلة وعريقة ومرموقة في « تونس » . في القرن الهجرى الأول هاجر جدّها « خالد » من ديار « حضر موت » ( باليمن ) ، وأقام مع عائلته في « اشبيلية » بالأندلس . وتعيّظاً لشأن « خالد » صغر اسمه على الطريقة الأندلسية ، فقالوا : « خلدون » . ومع مرور السنين صارت عائلة « خلدون » واحدة من أقوى وأكبر ثلاث عائلات يمنية الأصل في « اشبيلية » . واشتهر من رجال « آل خلدون » كثيرون ، في مجالات الفكر ، والعلم ، والسياسة . وأظهروا بسالة ( شجاعة ) منقطعة النظير في معركة « الزلاقة » الشهيرة ، ضد الفرنجة ، على عهد دولة « المرابطين » .

لكن « آل خلدون » اضطروا ، في النهاية ، إلى النزوح عن « اشبيلية » ، قبل قرن واحد من ميلاد « عبد الرحمن ابن



خَلْدُون» . فلم يعد من جَدْوَى ( فائدة ) لبقائهم في « اشبيلية » تحت حُكْمِ الْفَرَنْجَةِ ، فسَارَعُوا بِالرَّحِيلِ فِي أَوَاخِرِ عَهْدِ دَوْلَةِ « الموحِّدين » وآثَرُوا الْإِقَامَةَ فِي مَدِينَةِ « ثُونَس » ، معَ جُمُوعٍ أُخْرَى مِنْ الْمُهَاجِرِينَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ ، وَبَيْنَهُمْ ، وَمَعَهُمْ ، كَانَ حَرْفِيُّونَ ، وَمُزَارِعُونَ ، وَأَدْبَاءُ ، وَعِلْمَاءُ ، وَرِجَالُ فِكْرٍ ، وَسَاسَةِ ، وَقَادَةُ مُحَارِبُونَ .

## اخترت العلم

وفي « ثُونَس » صَارَ « آل خَلْدُون » عَائِلَةً شَهِيرَةً ، تَتَمَتَّعُ بِشُهْرَةٍ رُوحِيَّةٍ كَبِيرَةٍ . حِينَ انصَرَفَ وَالِدُ « عَبْدِ الرَّحْمَنِ » عَنِ السِّيَاسَةِ ، وَتَفَرَّغَ لِلتَّارِيخِ ، وَلِللُّغَةِ . وَصَارَتْ لَهُ ، فِي مَنْزِلِهِ الْكَبِيرِ ، حَلَقَةٌ عِلْمِيَّةٌ وَأَدَبِيَّةٌ ، يَتَرَدَّدُ عَلَيْهَا الْأَدْبَاءُ وَالْعُلَمَاءُ مِنْ أَهْلِ « ثُونَس » ، وَيَفْدُ إِلَيْهَا الْأَدْبَاءُ وَالْعُلَمَاءُ مِنَ الْأَنْدَلُسِ ، وَالْمَغْرِبِ الْكَبِيرِ بِأَسْرِهِ .

وفي هذه الحلقة ، أُتِيحُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ وَإِخْوَتِهِ أَنْ يَتَلَقَّوْا تَعْلِيمًا مُمْتَازًا ، عَلَى أَيْدِي أَفْضَلِ الْعُلَمَاءِ وَالْأَدْبَاءِ . حَفِظَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِقِرَاءَاتِهِ السَّبْعِ ، وَحَفِظَ أَحَادِيثَ كِتَابِ « الْمُوطَّأ » لِلإِمَامِ « مَالِك » ، وَالكَثِيرَ مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ ، وَفِي

مَقْدَمَتِهَا أَشْعَارُ « الْمُتَنَبِّي » . وَاکْتَسَبَ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ ، الْوَافِدِينَ عَلَى تُونَسَ ، مَعَارِفَ عُلُومِ الدُّنْيَا فِي زَمَانِهِ : الْمُنْطَقِيَّةَ ، وَالْفَلَسْفِيَّةَ ، وَالرِّيَاضِيَّةَ وَالْفَلَكَيَّةَ ، وَالطَّبِيعِيَّةَ ، وَأُغْرِمَ بِقِرَاءَةِ كِتَابِ « الْأَغَانِي » لِلأَصْفَهَانِيِّ . وَحِينَ سَأَلَهُ أَبُوهُ عَنْ سِرِّ حُبِّهِ لِهَذَا الْكِتَابِ ، قَالَ لِأَبِيهِ :

— لم أجِدْ كِتَابًا أَعْرِفُ مِنْهُ أَحْوَالَ الْعَرَبِ ، مِثْلَ هَذَا الْكِتَابِ .

وَسَأَلَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » أَبَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ :

— لِمَ لَمْ تَكُنْ يَا أَبِي ، مِثْلَ جَدِّكَ ، وَزِيرًا لِبَيْتِ الْمَالِ ، عِنْدَ سُلْطَانِ ثُونَسَ ، أَوْ مِثْلَ جَدِّي مُسْتَشَارًا لِلْسُلْطَانِ ، تَنْوِبَ عَنْهُ فِي غِيَابِهِ ، وَتَحْكُمَ مَدِينَةَ ثُونَسِ .

فَضَحِكَ أَبُوهُ لِسُؤَالِهِ ، وَقَالَ لَهُ :

— يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ . جَدِّي دَفَعَ حَيَاتَهُ ثَمَنًا لِمُنَاصَرَةِ السُّلْطَانِ . وَجَدُّكَ كَانَ سَيَكُونُ مُؤَرِّخًا عَظِيمًا ، لَوْلَا أَنَّهُ شُغِلَ عَنِ التَّارِيخِ ، بِكَوْنِهِ مُسْتَشَارًا لِلْسُلْطَانِ . وَقَدْ آثَرْتُ لِنَفْسِي ، وَلَكَ ، وَلِإِخْوَتِكَ ، طَرِيقَ الْعِلْمِ . وَبِفَضْلِ هَذَا الْاِخْتِيَارِ ، صَارَتْ لآلِ خَلْدُونِ مَنْزِلَةٌ عِلْمِيَّةٌ ، دُونَهَا كُلُّ سُلْطَانٍ .



## قائد أفريقي

كانت مدينة « تونس » في القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي ، موقعاً تجارياً ، يُراقبُ عمليات العبور البحرية والبرية ، في البحر المتوسط ، وبين المغرب ، والمشرق الإسلاميّين . وفيها كان يتجمع حجاج المغرب الكبير ( تونس والجزائر والمغرب ) ، والأندلس ، القادمين للحج ، والعائدين من الحج .

وكانت « تونس » آنذاك عاصمةً لدولة تونس « الحفصية » وتزدان بعشرات القصور الفخمة ، والمدارس العديدة ، والمساجد الضخمة ، وفي مقدمتها « مسجد القبة » وكانت « تونس » أكثر أقاليم « تونس » خصوبة ، وأوفرها مياهاً . وفي ضواحيها ، على عهد « عبد الرحمن » ، كان يُزرع : الزيتون ، والحبوب ، والكروم ، والتين ، واللوز ، والرمان . وبالقرب منها كانت مدينة « قرطاجنة » التي خربها الرومان ، بعد هزيمتهم للقائد المغربي « هنيبال » الذي اجتاح في زمان الرومان اسبانيا ، وعبر جبال الألب ، واحتل سهول إيطاليا الشمالية ، ثم أعادوا بناءها .

وكثيراً ما كان « عبد الرحمن » يذهب إليها ، ويستعيد مع نفسه أجداد قائد أفريقي تحدى الرومان ، أو يذهب للتنزه في مزارع « تونس » وحدائقها ، وضواحيها .

## عاشق المعرفة

كان « عبد الرحمن » قد بلغ من العمر سبعة عشر عاماً ، حين استولى السلطان « أبو الحسن » سلطان المغرب الأقصى ، على « تونس » ، وانتزعها من أيدي الحفصيين ، وكانوا له أصهاراً وأصدقاءً . وكان « أبو الحسن » يحاول توحيد المغرب الكبير طوال ثمانية عشر عاماً مضت . ترك عاصمة ملكه « فاس » ، وانتزع جبل طارق من يد الفرنجة ، ثم زحف شرقاً ، واستولى على سائر المغرب الأوسط ( الجزائر الآن ) من أيدي « بني عبد الواد » ، ثم أكمل فتوحه باجتياحه لأفريقية ، أو المغرب الأدنى ، ( تونس ) الآن . كان « أبو الحسن » يحاول أن يُعيد إلى المغرب الكبير وحدته الأولى التي كانت له على عهد المرابطين ، فالموحدين .

وبقدر ما هزت هذه الحرب العاصفة روح « عبد



الرحمن » ، بقدر ما أبهجت عقله . فَمَعَ هذا السلطان جاء  
عشرات من علماء المغرب والأندلس ، الذين يشكلون مجلسه  
العلمي ، أينما نزل أو ارتحل .

واتسعت حلقة العلم في بيت أبيه هؤلاء العلماء ، وفي  
مقدمتهم اثنان ، صاراً بين صفوة ( خيرة ) أساتذته : « ابن عبد  
المهيمن » عالم الدين والأدب ، و « الأبلّي » عالم المنطق  
والفلسفة . وأسلم « عبد الرحمن » ، عاشق المعرفة ، لهما كل  
عقله ، وجلّ ( معظم ) وقته . يقرأ عليهما ، ويسألهما ،  
ويحاورهما ، ويجيبهما عما يسألانه عنه .

### الوباء .. والمجاعة

وأقام « أبو الحسن » في « تونس » ثلاث سنوات ، يدير  
شئونها ، ويعيد ترتيب نظامها . وأثناء هذه الإقامة حدث وباء  
« الطاعون » في العام التالي ، عام تسعة وأربعين وسبعماية  
هجريّة ، ثمانية وأربعين وثلاثمائة وألف ميلاديّة .

اجتاح هذا الوباء معظم أنحاء العالم شرقاً وغرباً ، من  
« سمرقند » إلى « المغرب » ، وعصف بالأندلس ، وإيطاليا ،





وَمُعْظَمُ الْبِلَادِ الْأُورَاقِيَّةِ ، وَصَارَ يَهْلِكُ فِي الْمَدَائِنِ كُلِّ يَوْمٍ ،  
وَطَوَالَ عِدَّةِ أَشْهُرٍ ، الْعِشْرَاتُ ، وَالْمِائَاتُ ، وَالْأَلُوفُ . وَهَلَكَ  
فِي هَذَا الْوَبَاءِ وَالِدَا « عَبْدِ الرَّحْمَنِ » ، وَمُعْظَمُ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ  
وَفَدُوا بِصَحْبَةِ السُّلْطَانِ « أَبِي الْحَسَنِ » .

وَشَعَرَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » بِالْوَحْشَةِ وَالْوَحْدَةِ ، فَقَدْ خَلَا  
عَالَمَهُ مَنْ أَحَبَّهُمْ : الْأَبْوَانُ ، وَالْعُلَمَاءُ . وَتَوَقَّضَتْ رِحْلَتُهُ مَعَ  
الْعِلْمِ . وَانْطَوَى « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » عَلَى نَفْسِهِ عَاماً ، جَاءَ بَعْدَهُ عَامٌ  
آخَرُ مِلْءٌ بِالْأَحْزَانِ . فَهَاهُنَا الْمَجَاعَةُ بَعْدَ الْوَبَاءِ تَجْتَاخُ الْمَغْرِبَ  
الْكَبِيرَ ، وَهَاهُمْ مَنْ بَقُوا أَحْيَاءَ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَبَيْنَهُمْ أَسَاتِذُهُ  
« الْآبِلِيُّ » ، يَرْحَلُونَ مَعَ خُرُوجِ السُّلْطَانِ « أَبِي الْحَسَنِ » مِنْ  
« تُونِسَ » .

وَفَكَرَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » أَنَّ مَجْرَى حَيَاتِهِ يَتَغَيَّرُ . وَقَالَ لِأَخِيهِ  
الْكَبِيرِ « مُحَمَّدٍ » :

— أَفَكَّرْتُ فِي الرَّحِيلِ ، وَاللَّحَاقِ بِالْعُلَمَاءِ . فَلَا أَحِبُّ أَنْ  
تَتَوَقَّفَ دِرَاسَتِي لِلْعِلْمِ .

فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ « مُحَمَّدٌ » :

— لَا تَتَعْجَلْ يَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ . وَانْتَظِرْ إِلَى أَنْ تَهْدَأَ الْأُمُورُ ،  
فَالْمَغْرِبُ كُلُّهُ شَدِيدُ الْاضْطِرَابَاتِ .

## كَاتِبُ الْعَلَامَةِ

بَعْدَ رَحِيلِ « أَبِي الْحَسَنِ » عَنْ « تُونِسَ » ، زَحَفَ الْأَمِيرُ  
« الْفَضْلُ » الْخَفْصِيُّ عَلَيْهَا بِجَيْشِهِ ، وَاسْتَرَدَّ مُلْكَ أَسْرَتِهِ . وَجَعَلَ  
« ابْنَ تَافَرَائِكِينَ » وَزِيرًا لَهُ . لَكِنَّ هَذَا الْوَزِيرَ خَائِنُهُ ، وَدَبَّرَ انْقِلَاباً  
ضِدَّهُ ، وَعَزَلَهُ ، وَوَلَّى مَكَانَهُ أَخَاهُ الصَّغِيرَ ، لِيُظَلَّ ، هُوَ  
الْوَزِيرُ ، صَاحِبَ الْقَرَارِ وَالسُّلْطَةِ ، بِاسْمِ السُّلْطَانِ الصَّغِيرِ .  
وَجَاءَ يَوْمًا إِلَى « عَبْدِ الرَّحْمَنِ » أَخُوهُ « مُحَمَّدٌ » ، وَقَالَ  
لَهُ :

— ابْنُ تَافَرَائِكِينَ طَلَبَكَ ، دُونَ سِوَاكَ ، لِتَكُونَ كَاتِبَ  
الْعَلَامَةِ ( الْمَقْدِمَاتِ الْبَلِيغَةِ لِرِسَائِلِ الدَّوْلَةِ ) فِي قَصْرِ السُّلْطَانِ .  
وَرَأَيْتُ أَنَّ تَقَبَّلَ هَذِهِ الْوِظِيفَةَ ، حَتَّى لَا يُصِيبَ أَحَدٌ مِنْ آلِ  
خَلْدُونِ الْأَذَى ، فَهُوَ وَزِيرٌ مُسْتَبَدٌّ ، وَأَحْوَالُنَا الْمَالِيَّةُ لَيْسَتْ عَلَى  
مَأْيَرَامٍ .

وَقَبِلَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » هَذِهِ الْوِظِيفَةَ كَارِهًا ، فَهُوَ لَمْ يَنْلُ  
مَانَالَهُ مِنَ الْعِلْمِ ، لَكِنِّي يَكْتُبُ ، بِخَطِّ أُنَيْقٍ ، مَقْدِمَاتٍ بَلِيغَةً ،  
لِرِسَائِلِ قَصْرِ السُّلْطَانِ . وَكَانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ عَشْرِينَ سَنَةً .  
وَمَرَّ عَامٌ ، وَشُهُورٌ . وَزَحَفَ ابْنُ « الْفَضْلِ » ، السُّلْطَانُ



المعزول ، عَلَى « ثُونَس » ، لِيَسْتَرِدَّ عَرْشَ أَبِيهِ ، وكان أميراً على « قُسْطَيْنَةَ » ( بالجزائر ) . وخرج « ابْنُ تَافْرَاكِينَ » لِلِقَائِهِ ، مصطحباً معه « عَبْدَ الرَّحْمَنِ » . وَهَزِمَ « ابْنُ تَافْرَاكِينَ » . فَفَرَّ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » لَيْلًا ، من المعسكر المهزوم ، وَاتَّجَهَ غَرْباً فِي بِلَادِ « هَوَّارَةَ » ، وَاجْتَازَ بِلَادَ « أُبَّة » ، وَ« تَبَسَّة » . وَفِي « قَفْصَةِ » رَافِقٍ صَدِيقاً قَدِيمًا لَهُ إِلَى مَدِينَةِ « بَسْكَرَةَ » ( بالجزائر ) .

وكان فِي جَيْبِهِ بَعْضُ الْمَالِ ، فَاسْتَقَرَّ إِلَى أَنْ يَنْقَضِيَ الشِّتَاءُ . وَرَاقَتْ لَهُ فَتَاةٌ مِنْ عَائِلَاتِ « بَسْكَرَةَ » ، فَاخْتَارَهَا زَوْجَةً لَهُ ، وَعَمَرُهُ ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً .

وكان السُّلْطَانُ « أَبُو الْحَسَنِ » الْمُرِينِيُّ قَدْ تُوُفِّيَ ، وَانْفَرَطَتْ مِنْ بَعْدِهِ فُتُوحَاتُهُ خَارِجَ الْمَغْرِبِ ، وَوَلَّى عَرْشَ « فَاَس » مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ « أَبُو عِنَانَ » ، وَكَانَ شُجَاعًا طَمُوحًا ، وَأَرَادَ أَنْ يَسْتَرِدَّ الْمَدَائِنَ الَّتِي تَحَرَّرَتْ مِنَ التَّبَعِيَةِ لِفَاَس ، فَتَقَدَّمَ بِجَيْشِهِ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى « تِلْمَسَانَ » . وَخَشِيَ الْأَمِيرُ « أَبُو عَبْدِ اللَّهِ » الْحَفْصِيُّ الْعَاقِبَةَ ، فَسَلَّمَ لَهُ طَائِعًا إِمَارَةَ « بَجَايَةَ » .

وَجَاءَتْ الْأَخْبَارُ إِلَى « عَبْدِ الرَّحْمَنِ » بِأَنْ صَدِيقَهُ « مُحَمَّدُ ابْنُ أَبِي عُمَرَ » هُوَ حَاجِبُ ( رَئِيسِ وَزَرَاءِ ) « أَبِي عِنَانَ » ، فَقَالَ لَزَوْجَتِهِ الشَّابَّةَ :

— سَأَلَحُقُ بِسُلْطَانِ الْمَغْرِبِ فِي « تِلْمَسَانَ » ، وَسَتَبْقَيْنَ هُنَا بَيْنَ أَهْلِكَ فِي « بَسْكَرَةَ » إِلَى أَنْ أَعُودَ إِلَيْكَ ، أَوْ أُرْسِلَ مِنْ يَأْتِي بِكَ إِلَيَّ .

وَبَكَتْ زَوْجَتُهُ الشَّابَّةَ ، فَهَذَا هُوَ أَوَّلُ فِرَاقٍ .

## إجازات علمية

قَدَّمَ الْحَاجِبُ صَاحِبَهُ الْفَتَى « عَبْدَ الرَّحْمَنِ » إِلَى السُّلْطَانِ « أَبِي عِنَانَ » ، قَائِلًا لَهُ فِي مَجْلِسِ الْعُلَمَاءِ الَّذِي يُحِيطُ بِهِ نَفْسُهُ :

— هَاهُوَ يَامَوْلَايَ عَالِمٌ شَابٌّ نَابِهٌ ، مِنْ آلِ خَلْدُونِ ، وَاسْمُهُ : عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ .

فَقَالَ لَهُ السُّلْطَانُ :

— مَرْحَبًا بِكَ مَعْنَا يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ . لَا نَنْسَى مَكْرَمَةَ أَبِيكَ مَعَ الْعَالِمِ « عَبْدِ الْمُهَيْمَنِ » ، حِينَ آوَاهُ عِنْدَهُ ثَلَاثَةَ شُهُورٍ ، وَأُخْفَاهُ ، عِنْدَمَا ثَارَتِ الْفِتْنَةُ فِي ثُونَسَ ، ضِدَّ وَالِدِنَا « أَبِي الْحَسَنِ » .

وَدَعَاهُ السُّلْطَانُ لِلْجُلُوسِ ، مَعَ الْعُلَمَاءِ ، وَالْمِشَارَكَةِ فِي



حديثهم ، وأعجبته فطنته ، فجعله في صحبة حاجبه ، إلى أن يعود إلى « فاس » .

وفي « فاس » ، ضمَّ « أبو عنان » عبد الرحمن إلى المجلس العلمي ، فصار يشهد معه الصلوات ، ويشترك في المناقشات ( المحاورات ) . وعينه كاتباً للعلامة فقبل وظيفته كارهاً . وسارع بدعوة زوجته إليه ، فجاءت تحمل على صدرها ابنه الأول : « زيد » .

وعاد « عبد الرحمن » يستأنف ، في « فاس » ، ما انقطع من حياته . يلقي بها علماء المغرب والأندلس ، ويبحث عن حلقاتهم في كل مكان . وبينهم كان « ابن الصفار » إمام القراءات ، و« المقرئ » القاضي ، و« العلوي » المتفلسف ، و« البرجي » الكاتب . ونال منهم جميعاً الإجازات العلمية .

وكانت « فاس » ، آنذاك ، مدينة مزدهرة ، بأهل الحرف ، والتجار ، عامرة بالمنازل الكبيرة ، والقصور المشيدة بالحجر والرَّخام ، والمزينة بالخزف والزخارف ، وقد انتشر فيها الترف ، وأنس أهلها إلى الراحة والرخاء ، والثياب الحريرية ، والخيول البديعة ، والحلي الذهبية والفضية .

وإلى جانب « فاس » القديمة هذه ، كانت حركة البناء

لا تتوقف يوماً ، لإنشاء « فاس » أخرى جديدة ، يعيش فيها الموظفون الكبار ، والعسكريون العظام ، ورجال المال ، وتجار الذهب .

## زيارة تقود للسجن

وذهب « عبد الرحمن » ذات ليلة ، كعادته ، لزيارة صديقه القديم ، الأمير الحفصي ، سليل الأسرة الحفصية بتونس ، الأمير « أبو عبد الله » الذي تنازل طائعاً للسلطان « أبي عنان » عن عرش « بجاية » ، وصار محدّد الإقامة في بيت كالفص الذهبي في مدينة « فاس » . وكان « عبد الرحمن » يتعهّده بالرعاية والخدمة ، من موقع نفوذه في قصر السلطان . وقال الأمير « أبو عبد الله » لعبد الرحمن :

— إنني لأشعر بعميق الامتنان ( الشكر ) لك . ولا أدري كيف أُرّدُّ لك معروفك معي ، سيوى وغدى لك ، بأن تكون حاجباً ( رئيس وزراء ) لي ، إن عدتُ إلى عرش « بجاية » . وفوجيء « عبد الرحمن » بالأمير يُقدم له ورقة مكتوبة ، بها هذا الوعد الذي قطعه على نفسه . ومسّ هذا الوعد وتراً



في قلب « عبد الرحمن » ، فقد كان كارهاً لوظيفته ، ككاتب  
للعلامة ، في قصر السلطان « أبي عنان » .

وسعى الوشاة لدى السلطان بهذه العلاقة الحميمة ، بين  
الأمير الأسير ، و « عبد الرحمن » ، فأمر بالقبض على الاثنين ،  
وعذبهما ، وألقى بهما في السجن ، وكان « عبد الرحمن » قد  
بلغ من العمر تسعاً وعشرين سنة .

وأطلق السلطان سراح الأمير « أبو عبد الله » بعد حين ،  
لكنه أبقى « عبد الرحمن » سجيناً ، لا تشفع لديه أشعاره  
المتوسلة ، ولا تفلح عنده وساطة الشفعاء ( الوسطاء ) ، حتى  
رق له قلب السلطان ، إثر قصيدة بعث بها إليه « عبد الرحمن »  
بلغت عدة أبياتها مائتي بيت . ووعد السلطان بالإفراج عنه ،  
لكن السلطان كان مريضاً ، منذ سبع سنوات ، وأسلم الروح ،  
قبل أن يفنى بوعدده .

## حرية بلا عمل

وآلت ( صارت ) السلطنة في « فاس » ، إلى ابنه الطفل  
الصغير الأمير « السعيد » وكان الوزير « الحسن بن عمر » هو  
الوصي عليه ، والمستبد بشؤون الدولة ، وقتل هذا الوزير منافسيه



من الوزراء ، وأطلق سراح « عبد الرحمن » ، مع سيواه من  
المعتقلين ، ليتخذهم أعواناً له . لكن « عبد الرحمن » خشي  
عواقب السياسة معه ، فقال له :

— إن أذن لي سيدي الوزير ، انصرفْتُ عن « فاس » عائداً  
بأهلي إلى تونس .



فقال له الوزير :

— بل ستبقى معنا يا عبد الرحمن ، ونعاملُك بالكرامة والإحسان ، ونُمدُّك بما تحتاجُه من المال .

ولم يُعد « عبد الرحمن » إلى وظيفته ، فكتم ضيقه ، وانصرف زَمنا إلى طلبِ العلم ، حتى ثار « منصورُ ابن سليمان » على هذا الوزير ، وقتله ، وانتزعَ لِنَفْسِهِ سُلْطَنَةَ المغرب ، وأعادَ « عبد الرحمن » إلى وظيفته ككاتبٍ للعلامة !!

## العودة إلى النايح

وكان للسلطان « ابن عنان » أخٌ مُقيمٌ بالأندلس ، هو « أبو سالم » . وقَدِمَ هذا الأخُ إلى المغرب ، لِيَسْتَرِدَّ بالحربِ مُلكَ آبائِهِ ، يُسانِدهُ في ذلكَ وزيرُهُ « ابنُ مرزوقٍ » ودعا هذا الوزيرُ إليه « عبد الرحمن » وقال له :

— لك في نفوسِ أعيانِ المغربِ منزلةٌ يا عبد الرحمن . والسلطانُ يُكلِّفُك بدعوةٍ هؤلاءِ الأعيانِ لمناصرتِهِ ، لكي يَدْخُلَ مدينةَ « فاس » فاتحاً لها ، ويعِدُك بأكبرِ الثواب ، وأعظمِ المنزلة ، إذا نَجَحْتَ في مُهمَّتِكَ .

وصحبَ « عبد الرحمن » معه رجلاً من صفوة ( خيرة )

أصحابِ « أبي سالم » ، مُقنعاً نَفْسَهُ بأنَّ أحوالَ المغربِ قد اختلَّت ، وأنها ستصيرُ لا محالةَ ( لا مفرَّ ) إلى « أبي سالم » . ونَجَحَ « عبد الرحمن » في مهمته ، وجلسَ « أبو سالم » سلطاناً على عرشِ « فاس » ، فدعا إليه « عبد الرحمن » ، وقال له :

— من الآن ، أنت أَهْلٌ لثقتي ، وستكونُ في السُّلْطَنَةِ ، في مَنْصِبِ « كاتبِ السر » .

ونَهَضَ « عبد الرحمن » سعيداً بكتابةِ رسائلِ السلطان ، من مبدئها إلى منتهاها ، فأحدثَ ثورةً في زمانِهِ ، في فنِّ كتابةِ الرسائل ، فقد عادَ بها إلى أسْلُوبِ الكتابةِ المُرسَل ، الذي كان لها على يدِ الكُتَّابِ العربِ العظام .

## حسد ابن مرزوق

وظل « عبد الرحمن » في هذا المنصبِ قُرابةَ عامين ، حتى خَشِيَ الوزيرُ « ابنُ مرزوق » على مكانته منه ، وخاف أن يزدادَ ترقُّيه عندَ السلطان ، فيُصْبِحَ لَهُ وزيراً ، وعندهُ أثيراً ( مُفضَّلاً ) . ووقعَ ماخشيهِ « ابنُ مرزوق » ، حين قال « أبو سالم » لعبدِ الرحمن :



— بلغنا ياعبد الرحمن مدى ماأنت عليه من العلم  
بالشريعة والفقه . ونعرف حرصك على الصدق والعدل .  
ولذلك ستلى ، إلى جانب عمالك ، ديوان المظالم ( العدل ) .  
فانهض بها عنا ، كقاض .

وكان الوزير « ابن مرزوق » حاضراً ، وكان أيضا فقيها ،  
فحسد « عبد الرحمن » لفوزه دونه ، بوزارة « ديوان المظالم »  
الذى لم يسنده سلطان لأحد سواه . فى تلك اللحظة ، عزم  
« ابن مرزوق » على تدبير الخلاص من « عبد الرحمن »  
بالوشايات ، والدسائس .

وحقق « ابن مرزوق » غرضه بعد حين ، فأبعد السلطان  
« عبد الرحمن » عن مجلسه ، وقرب « ابن مرزوق » إليه ، ولم  
ينقذ « عبد الرحمن » من شر « أبى سالم » سوى تمرد أعيان  
« فاس » عليه ، بزعامة الوزير « عمر بن عبد الله » ، وكان  
زوجا لأخت « أبى سالم » ، وكبيراً لأمنائه . وانتهى هذا التمرد  
بخلع « أبى سالم » من السلطنة ، وتولية أخيه « تاشفين »  
سلطاناً على عرش « فاس » . وكان « عبد الرحمن » قد بلغ من  
العمر إحدى وثلاثين سنة .

## الخروج من فاس

وكان الوزير « عمر » صديقاً لعبد الرحمن ، فبادر  
( سارع ) « عبد الرحمن » بإعلان ولائه له ، فأقره هذا الوزير  
على كتابة السر ، وديوان المظالم ، بل وزاد فى راتبه ، ومنحه  
أملاكاً من الأراضى والدور . ووثق « تاشفين » بعبد الرحمن ،  
وخشى الوزير « عمر » بدوره ، من « عبد الرحمن » ، فقد  
يُصبح حاجباً للسلطان ، ويشغل مكانه ، على صغر سنه ، فراح  
يعرض عنه ، ويتنكر له ، ويتقده فى عمله أمام السلطان .

وشعر « عبد الرحمن » بقرب وقوع الشر ، فرغب فى  
الرجيل عن « فاس » ، خوفاً من خطر السجن ، أو القتل .  
فوسط الوزير « مسعود بن ماساى » لدى الوزير « عمر » لكى  
يقنعه بالإذن له فى الرجيل عن « فاس » . ورحب الوزير  
« عمر » برجليه ، لكنه قال له :

— أذننا لك فى السفر ياعبد الرحمن ، إلى أى مكان . عدأ  
مكائين : تلمسان ، وثونس .

وفهم « عبد الرحمن » غرض الوزير من إبعاده عن هاتين  
المدينتين ، ففى « تلمسان » ( بالجزائر ) السلطان « أبو حمو »



عدوُّ سُلطانِ المغربِ ، وفي « ثونس » سلطانُ حَفْصِيّ ، يعادى  
هو الآخر سُلطانَ المغربِ ، وفي وجُودِ رجلٍ مثل « عبد  
الرحمن » ، عندَ أحدهما ، خطرٌ مؤكَّدٌ على سُلطانِ المغربِ  
ووزيرِهِ . وقال « عبدُ الرحمن » طائِعاً ، وواعِداً :

— إن أذن لي الوزيرُ سافرتُ إلى « غَرْنَاطَة » بالأندلسُ ،  
بعيداً عن المغربِ كله .

وقبل الوزيرُ « عُمَرُ » ماطلبهُ « عبدُ الرحمن » ، وزوَّده  
الوزيرُ « مسعودٌ » بالمالِ . وأرسل « عبدُ الرحمن » زوجته  
وأولاده إلى أخوالهم في « قُسْطَيْينَة » ، إلى أن يستقرَّ به الحالُ  
في « غَرْنَاطَة » .

## في قاعة الأسود

عَبَّرَ « عبدُ الرحمن » مضيقَ جبلِ طارق إلى الأندلسِ ،  
وركبَ فرسه في طريقه إلى « غَرْنَاطَة » . وفوجيء بالأَمِيرِ  
« محمدُ الخامس » ووزيرِهِ « ابنُ الخطيب » يستقبلانه خارجَ  
« غَرْنَاطَة » مع كبارِ الفُرسانِ . وكان « عبدُ الرحمن » ، قد  
عَاوَنَهُ في إقْناعِ السُّلْطَانِ « أَبِي سالم » ، عِنْدَمَا كَانَ لاجئاً في





« فاس » ، فسَاعَدَهُ بِجَيْشٍ لَكْنِي يَسْتَرْجِعُ عَرْشَهُ فِي « غَرْنَاطَةَ » ،  
مِمَّنْ تَمَرَّدُوا عَلَيْهِ ، وَخَلَعُوا طَاعَتَهُ .

وعاش « عبد الرحمن » قُرَابَةَ عَامٍ مُعَزَّزاً مُكْرَماً . يُشَارِكُ  
الْأَمِيرَ وَوَزِيرَهُ فِي مَجَالِسِهِمَا ، وَرِحَالَتِ صَيْدِهِمَا ، وَيَخْلُو إِلَى  
نَفْسِهِ أَوْقَاتاً فِي مَكْتَبَةِ « غَرْنَاطَةَ » الْعَامِرَةِ ، أَوْ فِي التَّنَزُّهِ بَيْنَ  
الْبَسَاتِينِ وَمِيَاهِ النُّوَاظِيرِ ، أَوْ فِي الْإِنْصَاتِ إِلَى أَغَانِي الْغَرْنَاطِيِّينَ  
وَأَشْعَارِهِمْ .

وَطَابَتْ لَهُ الْحَيَاةُ فِي « غَرْنَاطَةَ » ، فَكَتَبَ رِسَالَةً فِي الْمَنْطِقِ ،  
وَشَرَحاً مُوجِزاً لِمَوْلاَفَاتِ « ابْنِ رُشْدٍ » . ثُمَّ دَعَاهُ الْأَمِيرُ إِلَيْهِ ،  
وَكَانَ جَالِساً فِي « قَاعَةِ الْأَسْوَدِ » بَيْنَ قَاعَاتِ قَصْرِ الْحَمْرَاءِ  
الْبَدِيعَةِ ، وَقَالَ لَهُ :

— إِنَّنِي بِحَاجَةٍ إِلَى مَعُونَتِكَ وَخَيْرَتِكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ .  
سَأَعْهَدُ إِلَيْكَ بِمَهْمَةٍ دَقِيقَةٍ فِي « اشبيلية » ، لَدَى مَلِكِهَا « بَطْرُسِ  
الرَّهِيْبِ » ، لَتَعْقِدَ بَيْنَنَا مُعَاهَدَةَ سَلَامٍ .

## مع بطرس الرهيب

دَخَلَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » مَدِينَةَ « اشبيلية » . وَعَجِبَ لِأَنَّهُ لَمْ  
يَشْعُرْ فِيهَا بِالْغُرْبَةِ . وَكَانَ الْحَرَّاسُ يَصْحَبُونَهُ إِلَى قَصْرِ

« جِيرَالْد » . وَلَا حَظَّ فِي الطَّرِيقِ رُوعَةَ الْأَيْنِيَةِ الَّتِي تَشْهَدُ عَلَى  
عَظَمَةِ أَجْدَادِهِ الْعَرَبِ ، وَأَنَّ كَثِيراً مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَا يَزَالُونَ يَعِيشُونَ  
مَعَ الْفَرَنْجَةِ فِي « اشبيلية » ، وَلَكِنْ ، كَمَا إِلَى ( أَتْبَاعِ ) لَهُمْ .  
وَشَعَرَ بِالْمَرَارَةِ لِهَجْرَةِ أَجْدَادِهِ هَذِهِ الْمَدِينَةَ السَّاحِرَةَ ، وَبِالْحُزَنِ  
لِحَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي صَارُوا إِلَيْهِ ، عَلَى شَاطِئِ نَهْرِ الْوَادِي  
الْكَبِيرِ ، يَشْتَغِلُونَ ، مَا يَزَالُونَ ، بِالثَّقَافَةِ ، وَصُنْعِ الْعُطُورِ ،  
وَالْمَنْسُوجَاتِ ، وَالْآلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةِ ، وَسَائِرِ الْحِرَفِ الْأُخْرَى .

وَحَيّاً « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » مَلِكَ « اشبيلية » . وَجَدَهُ كَبِيراً فِي  
السِّنِّ ، وَمَتَعَباً ، وَقَدَّمَ لَهُ هَدَايَا مَلِكِ « غَرْنَاطَةَ » : خِيُولٌ عَرَبِيَّةٌ  
أَصِيلَةٌ ، مَطْعَمَةُ السُّرْجِ وَاللَّجْمِ . وَأَخَذَ الطَّبِيبُ الْيَهُودِيّ :  
« إِبْرَاهِيمُ بْنُ زَرْزَرٍ » يُتَرَجِّمُ بَيْنَهُمَا ، وَكَانَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ »  
يَعْرِفُهُ عِنْدَمَا كَانَ بِفَاسٍ .

وَرَحَّبَ الْمَلِكُ بِالْفُرْصَةِ الْمَتَّاحَةِ لِلسَّلَامِ . وَكَانَ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ  
أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ وَقْتٍ ، كُنِيَ يَفْرَغُ لِمُوَاجَهَةِ أُمَرَاءِ إِمَارَاتِ مَمْلَكَةِ  
« قَشْتَالَةَ » ، الَّذِينَ تَحَالَفُوا ضِدَّهُ ، وَهُمْ أُعْوَانُهُ ، مَعَ قَرْنَسَا ،  
وَإِمَارَةِ « الْأَرْجُونِ » . وَاتَّفَقَ الرَّجُلَانِ عَلَى مُعَاهَدَةِ السَّلَامِ  
وَنُصُوصِهَا .

وَدَعَا الْمَلِكُ بَطْرُسَ « عَبْدِ الرَّحْمَنِ » لِيَبْقَى مَعَهُ فِي



« اشبيلية » ، زاعماً أن بقاءه معه سيُسَهِّل الكثير من أمور العرب عنده ، وفي الأندلس . وقال له :

— إذا قبلت عرضي . سأعيد إليك كل الأراضي والعقارات التي كان يملكها آل خلدون في « اشبيلية » .

لكن « عبد الرحمن » اعتذر عن قبول العرض . فأهل « غرناطة » بحاجة إليه . وكان يحتقر في أعماقه هؤلاء الخونة الذين يعملون عند الفرنجة . وقبل الملك عذره ، وأهداه بغلة لجامها من الذهب ، وسرجهما مطعم بالذهب ، ومهمازها من الذهب ، وحمله الهدايا إلى ملك « غرناطة » .

## رسالة عبر البحر

فرح ملك « غرناطة » بنجاح مهمة سفيره « عبد الرحمن » وارتفع قدره عنده لرفضه العمل مع ملك « اشبيلية » ، ولأنه أهدى إليه هديته الخاصة به ، التي أهداها له « بطرس الرهيب » وكافاه فمنحه خراج ( ضرائب ) قرية « البيرة » ( الفيرا ) ، وما يحيط بها من الأراضي المروية ، وكانت في أحصب مناطق « غرناطة » . وأرسل سفينة لكي

تعود إليه بزوجه وأولاده من مدينة « قسنطينة » ، فعاش معهم فترة سعيدة ، قصيرة ، من حياته العاصفة . وكانت « غرناطة » تلعب ، آنذاك ، وهي التابعة ، دور الوصاية ، على مدينتي : مراكش ، وفاس ، العارقتين في الترف ، والصراعات .

لكن « عبد الرحمن » ، بعد عامين فقط ، سئم هذه الحياة المريحة ، وشعر معها بسأم خفي ، أخذ يكبر في نفسه وعقله . وغدت مشاعره تلك مخاوفه من شكوك صديقه الوزير « ابن الخطيب » به ، لطول بقاءه في « غرناطة » . ولقربه الشديد من أميرها .

وحسم « عبد الرحمن » أمره ذات ليلة ، حين جاءته الفرصة ، فقابل الأمير « محمداً الخامس » في قاعة الأسود ، وأطلعته على رسالة وصلت إليه عبر البحر ، قائلاً :

— إنني أشكرك أيها الأمير لحسن ضيافتك ، وإكرامك لي ولأهلي . وقد آن للطائر المهاجر أن يعود إلى وطنه .

كانت الرسالة من صديقه القديم الأمير « أبو عبد الله » ، أمير « بجاية » ، وكان قد نجح في العودة إلى إمارته . وكان يدعوه إليه ، لكي يتسلم منصب الحاجب ( رئيس الوزراء ) في « بجاية » . وأذن له ملك « غرناطة » ، أسفاً ، وأكرمه بالهدايا



والعطايا . وأُخْفِيَ « ابنُ الخطيب » فرحه برحيله ، وتظاهرَ  
بالحزن لفراقه . وكان « عبد الرحمن » قد بلغ من العمر ثلاثاً  
وثلاثين سنة .

## مطامع ابن العم

كان يومُ استقبالِ « عبد الرحمن » في « بجاية » يوماً  
مشهوداً ، خارجَ المدينة ، وكان هو على فرسه ، بجانب الأمير .  
وقال الأمير « أبو عبد الله » للجميع :

— اشهدوا . من اليوم ، صار « عبد الرحمن ابن خلدون »  
حاجبى ، وصاحب الأمر والنهى فى بجاية .

وعكف « عبد الرحمن » على تدبير أمور المدينة . يجبى  
( يجمع ) لها الضرائب بدهاءٍ وحزم ، ويخمد ما فيها من فتن ،  
ويخطب خطبة الجمعة فى جامع القصبة ، ويدرس العلم لطلابها  
وعلمائها ، ويستقبل حيناً الأمير « أباحمو » أمير تلمسان  
وصهر أمير « بجاية » .

لكن الأمير « أبا العباس » ، أمير « قسنطينة » ، وابن عم  
أمير « بجاية » ، طمع فى حكم « بجاية » ، وراح يُجند القبائل



ضد ابن عمه . وكانت « بجاية » مدينة غنية ونشطة ، مُحاطة  
بسهل خصب ، مزروع بعناية ، ومنيعة الحصون ، وتصل إليها  
الموارد من القبائل ، وتجار الذهب والبضائع ، وحلقة وصل بين  
افريقيا وأوروبا ، وبين تونس وتلمسان . وكان أهلها خليطاً من  
المسلمين والمسيحيين ، والمغاربة والمشاركة والأندلسيين ، والبدو  
والحضر ، والقبائل الشتى ، ويعارضون بعضهم البعض فى كل  
شئ . ولذلك قال « عبد الرحمن » لابنه « زيد » :



— الحربُ واقعةٌ لا محالة بين ابني العمِّ . فهذه المدينةُ  
مُشيرةٌ بغناها ، وتفرَّق أهلُها ، لمطامعِ كلِّ الأُمراءِ من حَوْلِها .  
ونجح « أبو العباس » في حربِهِ ضدَّ ابنِ عمه ، حينَ شَنَّ  
هُجُوماً مفاجئاً على جيشِهِ ، ولقِيَ الأميرُ « أبو عبدِ الله »  
مَصْرَعَهُ ، وهو يُلَوِّذُ بِالْفِرَارِ .

ولم يجد « عبدُ الرحمن » مَفَرّاً ، لحماية المدينة من تسليمها  
للأمير « أبي العباس » ، فأبقاه في مَنْصِبِهِ ، وظلَّ « عبدُ  
الرحمن » خائفاً منه على نفسه وأهلِهِ ، ولذلك سارع « عبدُ  
الرحمن » بِالْفِرَارِ بأهلِهِ ليلاً ، إلى مدينة « بَسْكَرَةَ » ، فأمرَ « أبو  
العباس » بتفتيش بُيُوتِ « آلِ خلدون » في « بَجَايَةَ » ، فلم يجد  
رجالَهُ بِهَا ذَخِيرَةً وَلَا أَمْوَالاً . وغَضِبَ فأمرَ باعتقالِ أَخِيهِ  
« يحيى » ، وكان مقيماً في بلدة « بُونَةَ » ( العنّاب ) بالقربِ من  
« بَجَايَةَ » .

### هزيمة ساحقة

كان « عبدُ الرحمن » قد بلغَ من العمرِ ثمانِي وثلاثينَ سَنَةً .  
وكان حزيناً على مَصْرَعِ صاحِبِهِ ، حينَ جاءَهُ سفيرٌ من « أبي  
حَمُو » ، أميرِ « تلمسان » ، وقالَ له :

— الأميرُ « أبو حَمُو » ، يُريدُ معاونتَكَ في الثَّأْرِ لَصْهَرِهِ  
الأميرِ القَتِيلِ ، وقد كانَ صديقاً لَكَ ، وكنتَ حاجباً لَهُ .  
ولذلك يُريدُكَ معه ، حاجباً لَهُ ، في تِلْمَسَانَ .

وكانَ « أبو حَمُو » ، قد بعَثَ بجيشٍ للاستيلاءِ على  
« بَجَايَةَ » ، لكنَّ « أبا العباس » هزَمَهُ هزيمةً مُنْكَرَةً ، وكانَ  
« عبدُ الرحمن » يَعْرِفُ أَنَّ « أبا حَمُو » يريدُ الاستعانةَ بِهِ ،  
لتحريضِ قبائلِ « بَجَايَةَ » ضدَّ « أبي العباس » وقالَ « عبدُ  
الرحمن » للسَّفيرِ ، وكانَ أَخُوهُ « يحيى » جالِساً معهما :

— عزمْتُ على التَّفَرُّغِ لِلْعِلْمِ ، واعتزلْتُ المناصبَ . وهاهُوَ  
أَخِي « يحيى » قد نَجَحَ في الفِرَارِ من « بُونَةَ » فحُذِّهِ مَعَكَ ،  
فهو خَيْرٌ من يُريدُهُ الأميرُ لِلْحِجَابَةِ . وسوفُ أُعِينُ أميرَ تِلْمَسَانَ  
بجيشٍ من قبائلِ « بَجَايَةَ » .

وانصرفَ السفيرُ مع « يحيى » . ونَهَضَ « عبدُ الرحمن »  
بمهمَّتِهِ الجديدةِ للثَّأْرِ لَصْديْقِهِ . لكنَّ جيشَهُ وجيشَ « أبي حَمُو »  
هَزَمَا هزيمةً ساحقةً ، فعادَ « عبدُ الرحمن » إلى « بَسْكَرَةَ » يُعَدُّ  
لجولةٍ أُخْرَى .



## جيش المطاردة

وَوَلَّى عَرْشَ « فَاَس » السُّلْطَانُ « أَبُو فَاَس » الْمُرَيْنِّي ،  
وَخَرَجَ بِجَيْشِهِ لَغْزْوِ « تِلْمَسَانَ » فَوَجَدَ « عَبْدَ الرَّحْمَنِ » نَفْسَهُ  
وَقَدْ وَقَعَ بَيْنَ نَارَيْنِ ، وَمُعْسَكْرَيْنِ ، فِي حَرْبٍ لَا غَرَضَ لَهُ مِنْهَا .  
وَدَبَّرَ لِلْعُودَةِ إِلَى « غَرْنَاطَةِ » وَجِيدًا ، لَكِنْ سَرِيَّةً مِنْ جُنْدِ « أَبِي  
فَاَس » لِحَقِّقَتْ بِهِ ، وَعَادَتْ مَعَهُ إِلَى « أَبِي فَاَس » فِي مُعْسَكَرِهِ  
عَلَى مَشَارِفِ « تِلْمَسَانَ » ، فَقَالَ لَهُ :

— ظَنَّنَا أَنْ مَعَكَ وَدَائِعَ لِأَبِي حَمُو ، وَرِسَالَةً حَمَلْتَهَا مَعَكَ  
إِلَى أَمِيرِ « غَرْنَاطَةِ » . لَكِنْ مَا الَّذِي دَعَاكَ يَوْمًا لِلرَّحِيلِ عَنْ  
فَاَس ، وَعَنْ خِدْمَةِ الْمُرَيْنِيِّينَ ؟

فَقَالَ لَهُ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » :

— الْخَوْفُ مِنَ الْوَزِيرِ « عَمْرٍ » الَّذِي قَتَلْتُمُوهُ ، هُوَ الَّذِي  
دَعَانِي لِلرَّحِيلِ آنَئِذٍ .

وَتَشَفَّعَ رِجَالُ « أَبِي فَاَس » لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ، بِحُسْنِ خِدْمَاتِهِ

السَّابِقَةِ لِلْمُرَيْنِيِّينَ ، فَأُطْلِقَ سَرَاخَهُ . فَذَهَبَ إِلَى رِبَاطِ أَبِي مَدِينِ  
( مُلْجَأًا لِفُقَرَاءِ الصُّوفِيَّةِ ) ، مُعَلِّيًا تَفَرُّغَهُ لِلْعِبَادَةِ وَالْعِلْمِ .  
وَجَاءَتْهُ الْأَخْبَارُ بِاجْتِيَاكِ « أَبِي فَاَس » لِمَدِينَةِ « تِلْمَسَانَ » ،  
وَفَرَارِ « أَبِي حَمُو » بِجَيْشِهِ إِلَى الصَّحَرَاءِ . وَفُوجِيَ بِرِجَالِ  
« أَبِي فَاَس » يَأْخُذُونَهُ مِنَ الرِّبَاطِ لِلِقَاءِ السُّلْطَانِ :

قَالَ لَهُ السُّلْطَانُ « أَبُو فَاَس » :

— اخْتَرْتُكَ دُونَ سِوَاكَ ، لَكِي تُجَنِّدَ جَيْشًا مِنَ الْقِبَائِلِ ،  
وَتُطَارِدَ بِهِ « أَبَا حَمُو » . وَعَلَيْكَ أَنْ تُبْرِهِنَ عَلَى وَلَائِكَ لَنَا ،  
وَمَعَكَ قَادَةُ جَيْشِنَا .

وَلَمْ يَجِدْ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » مَفْرَأً مِنَ التَّنْفِيذِ ، فَجَنَّدَ جَيْشًا ،  
هَزَمَ بِهِ جَيْشَ « أَبَا حَمُو » ، وَنَجَا « أَبُو حَمُو » بِنَفْسِهِ ، وَحِيدًا  
فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ ، وَقَدْ تَشَرَّدَ أَهْلُهُ ، وَتَفَرَّقَ أَغْوَاثُهُ . وَعَادَ « عَبْدُ  
الرَّحْمَنِ » إِلَى « تِلْمَسَانَ » ، فَشَكَرَهُ السُّلْطَانُ ، وَأَذِنَ لَهُ فِي  
الْعُودَةِ إِلَى أَهْلِهِ فِي « بَسْكَرَةِ » . لَكِنْ أَمِيرَهَا لَمْ يُخَفِ عَنْهُ  
خَشْيَتُهُ مِنْهُ ، وَكَانَ لَهُ صَدِيقًا ، فَصَحِبَ أَهْلَهُ ، وَذَهَبَ بِهِمْ إِلَى  
حِمَايَةِ « أَبِي فَاَس » فِي « تِلْمَسَانَ » .



## عودة الفتن

في الطريق ، جاء إليه الخبر بوفاة « أبي فارس » . فعَدَلَ بأهله إلى « فاس » ، فقد أدرك أن « أبا حمو » سيعود إلى « تلمسان » ، وأن عليه أن ينجو بنفسه وأهله ، من انتقام « أبي حمو » ، لكن أشقياء من « بني يغمور » انقضوا على « عبد الرحمن » وأهله ، ونهبوا متاعه وماله ، وهرب حراسه على خيولهم إلى جبل « دبدو » . فسار بمن معه إلى الجبل في حالة يرثى لها ، تحت حرارة الشمس الصحراوية . وصحبه الحراس إلى « فاس » . وعوضه الوزير « ابن غازي » عما أصابه ، فعاش عالماً ، موفور الثراء ، إلى أن بلغ أربعاً وأربعين سنة .

لكن الفتن عادت مرة أخرى تحت سماء « فاس » . يُخلع سلطان ، ويؤلى سلطان ، ويُقبض على « عبد الرحمن » ويُطلق سراحه ، لغير سبب في الحالين . وجلس « عبد الرحمن » يفكر في غده . وقال لزوجته وابنه « زيد » :

— الآن أدرك أن قصور المغرب كلها قد سُدَّت في وجهي . وأن كل الأمراء صاروا في شك من أمري . ولا مفر لي من الرحيل إلى « غرناطة » ، فابقوا في « فاس » إلى أن أدعوكم إلي .

## عُد إلى عدوك

ونزل « عبد الرحمن » ، للمرة الثانية ، ضيفاً على أمير « غرناطة » ، لكن سلطان « فاس » الجديد ، أرسل في أثره ، يطلب من أميرها إعادته إلى « فاس » ، فأبى أمير « غرناطة » الاستجابة لطلب السلطان ، فبعث إليه يتوعده بالحرب ، إن لم يخرجهُ من الأندلس ، إلى أي مكان آخر ، وليكن هذا المكان هو « تلمسان » ، دون سواها .

وأدرك « عبد الرحمن » أن سلطان « فاس » يخشى على عرشه منه ، وهو بالأندلس ، ويريد الخلاص منه بإرساله إلى عدوه « أبي حمو » . وخشى على أهله في « فاس » من سلطان « فاس » ، فقبل العودة وحيداً إلى « تلمسان » ، لينقذ أمير « غرناطة » من الحرج ، وأهله من الانتقام .

## برهن على إخلاصك

حين وطئت قدماه ميناء « هُنين » أرسل إلى أخيه « يحيى » ، ومن العجيب أنه كان ما يزال يعمل حاجباً لأبي حمو في « تلمسان » ، وإلى أعيان « تلمسان » ، طالباً شفاعتهم



لَدَيْهِ ، وَإِذْنَهُ لَهُ بِالْمَثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، طَالِباً الْأَمَانَ ، لَكِي يَنْتَرِعَ  
لَهُ ، بَدَهَائِهِ ، عَرْشَ « بَجَايَةِ » ، فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ .

وَاسْتَقَرَّ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » فِي « تِلْمَسَانَ » ، وَقَدِمَ إِلَيْهِ أَهْلُهُ  
مِنْ « فَاس » ، وَتَظَاهَرَ « أَبُو حَمُو » بِقَبُولِ إِعْلَانِ « عَبْدِ  
الرَّحْمَنِ » ، اعْتِزَالَهُ لِلْسِّيَاسَةِ ، وَانْقِطَاعَهُ لِلْعِلْمِ ، حَتَّى دَعَاهُ  
إِلَيْهِ ، وَقَالَ لَهُ :

— عَفَوْتَ عَنْكَ ، وَأُرِيدُكَ ، الْآنَ ، أَنْ تُبْرِهِنَ عَلَيَّ وَلَأَنَّا  
لِي ، بِدَعْوَةِ الْقَبَائِلِ إِلَى نُصْرَتِي .

## مع بني هلال

تَظَاهَرَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » بِالْقَبُولِ ، وَغَادَرَ « تِلْمَسَانَ » ،  
وَاخْتَارَ جِهَةً نَائِيَةً ، جَنُوبِيَّ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ ، حَيْثُ مَنَازِلُ  
أَصْدِقَائِهِ مِنْ « بَنِي عَرِيفٍ » .

وَجَلَسَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » إِلَى أَعْيَانِ « بَنِي عَرِيفٍ » فِي قَلْعَةٍ  
« بَنِي سَلَامَةِ » ( تَاوْغَزُوت ) ، فِي بِلَادِ « تُوجِينَ » ( بِمَقَاطَعَةِ  
وَهْرَان ) . وَقَالَ لَهُمْ :

— صِرْتُ إِلَى أَسْوَأِ حَالٍ . وَأَجِدُنِي فِي مَرْمَى السَّهَامِ مِنْ

كُلِّ الْأُمَرَاءِ ، وَلَا أُرِيدُ الْآنَ سِوَى الْفِرَاقِ لِلْعِلْمِ ، وَاللَّجُوءِ إِلَى  
حِمَايَتِكُمْ .

وَأَخَذَتِ النَّخْوَةُ ( المروعة ) رِجَالَ « بَنِي عَرِيفٍ » ، فَبَعَثُوا  
لِأَبِي حَمُو ، يَطْلُبُونَ عَفْوَهُ عَنْ « عَبْدِ الرَّحْمَنِ » لِمُخَالَفَتِهِ لِأَمْرِهِ ،  
وَالِإِذْنَ لِأَسْرَتِهِ لِكُنْيِ تَلْحُقَ بِهِ ، وَوَعْدُوهُ بِنُصْرَتِهِ إِنْ هُوَ قَبَلَ  
رِجَاءَهُمْ . وَقَالَ « أَبُو حَمُو » لِيَحْيَى :

— فَعَلَهَا أَخُوكَ . فَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى رَفْضِ رِجَاءِ بَنِي  
عَرِيفٍ . وَوَرَاءَهُمْ عَشَائِرُ ( أُسْرُ ) « الدَّوَاوِدَةِ » ، وَعَشَائِرُ  
« رِيَّاح » ، وَهُمْ أَغْزُ قَبَائِلِ بَنِي هَلَالٍ ، وَأَكْثَرُهُمْ نَفَرًا  
( جَمْعًا ) .

فَقَالَ لَهُ « يَحْيَى » :

— أَبْهَا الْأَمِيرِ . امْنَحْهُ عَفْوَكَ . وَأَكْرِمْهُ بِأَهْلِهِ . فَاللَّهُ قَدْ  
اخْتَارَهُ لِلْعِلْمِ لَا لِلْسِّيَاسَةِ .

## خبرة الغمر

فِي الْقَلْعَةِ ، نَعِمَ ( تَمَتَّعَ ) « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » بِالْأَمْنِ ،  
وَالِاسْتِقْرَارِ ، وَالْهُدُوءِ ، يَرْقُبُ فِي اللَّيْلِ الْقَمَرَ وَنُجُومَ السَّمَاءِ ،



وَيُنْصِتُ إِلَى عَزِيفِ ( صَوْتِ ) الرِّيحِ ؛ وَيَسْمَعُ فِي النَّهَارِ صَهِيلَ  
الْخَيْلِ ، وَيَرَى بِحَارَ الصَّحَرَاءِ ، وَقِمَمَ الْجِبَالِ ، وَهُوَ جَالِسٌ  
وَحِيداً مَعَ كُتُبِهِ ، وَدَفَاتِرِهِ ، وَرِيشَتِهِ ، وَمِخْبَرَتِهِ ، يُفَكِّرُ فِي  
أَحْوَالِ الْأُمَمِ ، وَتَقَلُّبَاتِ الدُّوَلِ ، وَتَشَابُهِ الْأَحْدَاثِ فِي  
الصَّحَارَى وَالْوُدْيَانِ ، وَالْبَوَادِي وَالْحَوَاضِرِ .

وَطَوَالَ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ فَقَطْ ، كَانَ قَدْ كَتَبَ سِتْمِائَةَ وَسَبْعاً  
وِثْمَانِينَ صَفْحَةً . وَضَعَ فِيهَا خَبَرَ رُبْعِ قَرْنٍ قَضَاهُ فِي السِّيَاسَةِ ،  
وَخِدْمَةِ الْقُصُورِ ، وَمَنَاوَرَاتِ الْأُمَرَاءِ وَالسَّلَاطِينِ . وَاهْتَدَى إِلَى  
الْقَوَائِنِ الْاجْتِمَاعِيَةِ الْمُحْتُمَةِ ، وَالْمُتَكَرِّرَةِ ، لِشُؤْنِ الْاجْتِمَاعِ  
الْبَشَرِيِّ . وَعَثَرَ عَلَى الْمُنْهَجِ وَالرُّؤْيَا لِتَارِيخِ مُوسُوعِي كَبِيرٍ ،  
عَنْ أُمَمِ الْأَرْضِ فِي عَصْرِهِ ، وَإِلَى زَمَانِهِ . وَكَتَبَ « عَبْدُ  
الرَّحْمَنِ » عَلَى غِلَافِ صَفْحَاتِهِ عِنَوَاناً مُتَوَاضِعاً : « الْمَقْدَمَةُ فِي  
فَضْلِ التَّارِيخِ » ، وَقُدِّرَ لِهَذِهِ الْمَقْدَمَةِ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةً مِنْ أَشْهُرِ  
كُتُبِ الدُّنْيَا ، وَأَنْ تَحْمِلَ بَعْدَ قُرُونٍ عِنَوَاناً : « مُقْدَمَةُ ابْنِ  
خَلْدُونِ » .

وَفِي السَّنَوَاتِ الْأَرْبَعِ التَّالِيَةِ ، أُتِّجَزَ « ابْنُ خَلْدُونِ » أَجْزَاءً  
تَارِيخِيَّةً فِي كِتَابِهِ الْمَوْسُوعِيِّ : « الْعَبْرُ وَدِيَوَانُ الْمَبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ » ،  
مُسْتَعِيناً بِدَفَاتِرِهِ الْخَاصَّةِ ، مُفْتَقِداً الْكَثِيرَ مِنَ الْمَرَاجِعِ ، وَكَتَبَ  
التَّارِيخَ .





## لكل شيء قانون

وجلس « عبد الرحمن » ليلاً ، مع ابنه « زيد » ، وقال

له :

— هذه هي مُقَدِّمَتِي لدراسة التاريخ . اقرأها بعناية . فلم يسبقني أحدٌ إلى مثلها . لم أفعل فيها مافعله غيري من المؤرخين . لم أتوقف عند وصف ظواهر التاريخ ، أو الدعوة إلى مبادئ ومعتقدات ، أو إلى مدينة فاضلة ، فعلت ما هو أجل وأعظم . درستُ الظواهر الاجتماعية في تاريخ البشر ، وحللتها ، واكتشفت قوانينها المبررة ، التي تحكم تطوّر هذه الظواهر ، وتحكم في مدى الاستقرار البشري ، في أيّ مكان .

فقال له « زيد » :

— فعلت إذن مافعله العلماء مع ظواهر الطبيعة ، والكائنات الحية ، في علوم الكيمياء ، والحياة ، والحيوان ، ووظائف الأعضاء .

فقال له أبوه :

— أصبت التشبيه يازيد . ذلك هو مافعلته تماماً ، لكي

أصل إلى قوانين حاكمية ، للاجتماع البشري ، لا تشذ عن القوانين المماثلة ، لظواهر الكون بأسره .

وصمت « عبد الرحمن » برهة . ثم قال لزيد :

— لكنني يا بني ، مازلت بحاجة إلى المراجع والكتب ، لأستكمل أجزاء كتابي في التاريخ : « العبر وديوان المبتدأ والخبر » وأعرف أنها موجودة ، في مكان واحد ، أعرفه منذ صباي : « مكتبة تونس » .

ولم يتردد « ابن خلدون » . أمسك بقلمه ، وجلس يكتب رسالة إلى « أبي العباس » ، وكان قد صار سلطاناً على « تونس » يطلب فيها العفو عنه ، ويعلن اعتزاله للسياسة ، وتفرغه للعلم ، وإنجازه لمقدمته ومعظم تاريخه ، وحاجته إلى مكتبة « تونس » ، وبعث برساليته مع رسول طار بها على ظهر جواد ، وجلس يترقب ( ينتظر ) ردّ السلطان .

## لا مهرب سوى الهرب

عاد الرسول إلى « ابن خلدون » بعد أسابيع ، ومعه رسالة تحمل عفو السلطان ، وتأذن له في العودة إلى تونس . فسارع



بمغادرة ديار « بنى عريف » ، تاركاً أهله في رعايتهم إلى حين ، وصحبه الفرسان في اجتيازه للصحراء ، حتى دخل على « أبي العباس » وسط جيشه ، في سرادقه ، قرب مدينة « سوسة » .

ورحب « أبو العباس » بابن خلدون ، واستشاره لفوره في إخماد ثورة ، فأشار عليه بالرأى السديد ( الصواب ) . ووفر له نائب السلطان في « تونس » الراحة ، ومنحه معاشاً سخياً ( كبيراً ) ، فبعث بمن يأتي بأسرته من ديار « بنى عريف » .

كان « ابن خلدون » قد بلغ من العمر اثنتين وخمسين سنة ، حين أتم تاريخه في مكتبة « تونس » ، وفي حفل مشهود ، رفع « ابن خلدون » مقدمته وتاريخه إلى السلطان . وظن أنه قد أغفى إلى الأبد من أمور السياسة والحرب ، في المغرب كله ، لكن « أبا العباس » عاد للاستعانة به ، في حملة حربية ، ومهام وزارية ، لم يكذ يفرغ منها حتى عزم على قرار لارجعة فيه : الهرب من تونس ، بل من المغرب بأسره ، لبدأ حياة جديدة ، لا حاجة بأحد فيها لمثله ، في سياسة أو حرب . ووجد سبباً للهرب : الخروج إلى الحج ، وكانت عينه الخفية على القاهرة ، وقد تذكر كلمات « المقرئ » له عنها : « من لم ير القاهرة لم ير عز الإسلام » .

## حاضرة الدنيا

دخل « ابن خلدون » مدينة الاسكندرية ، في يوم عيد فطر ، وتجوّل بها شهراً ، ثم ارتحل جنوباً إلى القاهرة . وهالته القاهرة . ها هو في حاضرة الدنيا في زمانه ، وراعه كثرة الخلق ، والبساتين والمدارس ، والمستشفيات ، والقصور ، والأهرامات ، وأبو الهول ، والعمائر المختلفة الطرز والعصور ، وتكايا الصوفية ، ووفرة العلماء والفنانين والأطباء ، وتراعى المزارع الشاسعة وراء الأفق ، أينما نظر . وهمس « ابن خلدون » : « نعم . هنا قلعة الإسلام الحصينة للمشرق والمغرب . وهنا البقاء إلى نهاية العمر إن شاء الله » .

على عرش مصر ، كان يجلس آنذاك ، السلطان « الظاهر برقوق » ، أحد المماليك البرجية العظام ، قبل دخول « ابن خلدون » بعشرة أيام ، وقدر لابن خلدون أن يعيش زمانه ، ويرى رعايته للعلوم والفنون ، وإنشاءه للمدارس والمستشفيات ، وإغداقه على العلماء والفنانين . وكانت مصر في ذلك العصر أغنى بلاد الأرض ، فهي المعبر والطريق بين البحرين : الأحمر ، والمتوسط ، وهي المعبر والطريق ، بين : الشرق والغرب ، والشمال والجنوب .



## مرحباً بك

وتَسَابِقُ علماء مصرَ وطلابُها ، للترحيبِ بأبنِ خلدون ،  
فقد سبقه إليهم تاريخُه ومقدمته ، وبلغَهُم مَدَى علمه في الفقه  
والحديث ، واللغة والأدب ، وفنون الكتابة . وتَحَلَّقَ حَوْلَه  
الطلابُ في حلقةِ العلمِ في رواقِ المغاربةِ بساحةِ الأزهر .  
وأعجبَ به الأميرُ « الطنبغا الجوباني » ، فقدمه إلى السلطانِ  
« الظاهرِ بَرَقُوق » ، قائلاً :

— هذا يامولاي هو عالمُ المغربِ بأسره ، جاء للإقامةِ في  
ظلِّ عَدْلِكَ وبرِّكَ .

كانَ العامُ هو العامُ الرابعُ والثمانينَ وسبعمائةَ للهجرةِ ،  
الثاني والثمانينَ وثلاثمائةَ وألفَ للميلاد ، حينَ دَخَلَ « ابن  
خلدون » مدينةَ القاهرةِ . ولم يَمُضْ عليه سِوَى عامينَ ، حتى  
أَخَذَ السلطانُ يُعَيِّنُه في وظائفِ التدريسِ والقضاءِ ، أنا بمدارِسِ :  
القمحيةِ ، والصالحيةِ ، وأنا في منصبِ قاضي قضاةِ مصر ،  
بصفتهِ قاضي قضاةِ المالكيةِ ؛ وأنا مديراً لخانقاهِ ( تَكِيَّة ) ببيرسِ  
الصوفيَّةِ . وصارَ لَهُ في القاهرةِ منزلانِ كبيرانِ : أحدهما في « بين  
القصرين » ، والآخرُ في جزيرةِ « الروضة » على شاطئِ النيلِ .



كانَ يَحْيَا آمناً ، لا يُعَكِّرُ صَفْوَه ، إلا صَعَائِرُ بَعْضِ  
الموظفينَ والفقهاءِ ، بالسَّعَاياتِ والوشاياتِ ، لكنَّ بيته ظلَّ آمناً  
لا يُفْتَشُ ، وحياته وادعةٌ لا تُهَدِّدُ ، وراتبه جارياً لا يَنْقَطِعُ ، إن  
بَقِيَ في عَمَلٍ أو عُزِلَ عَنْهُ ، كى يُولَّى غَيْرَه ، أو تُرِكَ بلا عَمَلٍ  
إلى حينِ .



وأربع حوادث كبرى ، مر بها « ابن خلدون » في حياته بالقاهرة ، وفي الفترة القصيرة التي قضاها بالشام : حين استعد لا استقبال أهله بالقاهرة ، وحين شارك مكرها في عزل السلطان ، وحين زار فلسطين ، وحين لقي « تيمورلنك » بالشام .

## الحنّة الكبرى

استعان « ابن خلدون » بالسلطان « برقوق » لئيساعده في مجيء أهله إليه من « تونس » ، فكتب سلطان مصر إلى سلطان تونس . طالباً منه ، السماح لأهل « ابن خلدون » باللحاق به في مصر ، وقال له في رسالته :

« إنني بحاجة إلى خدمات ابن خلدون العلمية ، وقد أثر الإقامة في مصر ، ولا يليق بسلطان من سلاطين المسلمين ، أن يحول دون اجتماع شمل لأسرة ، في أي وطن من أوطان الإسلام » .

واستجاب سلطان تونس لسلطان مصر ، فركب أسرة « ابن خلدون » سفينة متوجهة إلى الاسكندرية .

كان الوقت شتاءً ، والبحر هائج الأمواج ، والريح عاصفة ، فغرقت السفينة بمن عليها ، وهي على وشك دخول الميناء ، وابتلع الماء أفراد أسرة « ابن خلدون » جميعاً ، وماله ، ومتاعه ، وكتبه ، وتقاذفت الأمواج كل شيء .

وانطوى « ابن خلدون » على نفسه حزينا ، ومشى بين الناس مكتئب النفس ، وكانت الوشايات به قد أثمرت لدى السلطان ، فعزله من منصب القضاء ، وأسند إليه منصب التدريس للفقهاء المالكيين في المدرسة الظاهرية البرقوقية .

وكان « ابن خلدون » في حالة من الاكتئاب ، لاتجعله يوثق علاقته بمدير هذه المدرسة ، فسعى لدى السلطان ، فأغفاه أيضاً من هذا المنصب ، لكنه ظل يجرى عليه راتبه . ولم يُنجه من محنته سوى خروجه للحج .

## الغضب والعفو

وحدثت في الشام فتنة قادها « يلبغا الناصري » . وانتهت هذه الثورة بخلع العلماء في مصر ، للسلطان الظاهر « برقوق » عن عرش مصر . وشارك « ابن خلدون » مكرها في هذا الخلع .



وتمكن السلطان « برقوق » من العودة إلى عرش مصر ،  
فجمع العلماء ، وعائبهم ، فاعتذر « ابن خلدون » عن نفسه  
وعنهم ، بقوله :

— أكرهنا على التوقيع الأمير « منطاش » ، وهددنا في  
أرواحنا وأرزاقنا ، زاعماً لنا أنك تستعين في قتال المسلمين ، بغير  
المسلمين .

وظل « برقوق » غاضباً زمناً عليه ، وعلى العلماء ، ثم عفا  
عنهم ، وأعاد إليهم رواتبهم ، بل وأعاد « ابن خلدون » إلى  
منصب القضاء . وكان قد بلغ من العمر سبعين سنة . ولم تمض  
سوى شهر حتى توفي « الظاهر برقوق » ، وولى عرش مصر  
من بعده ، ابنه « الناصر فرج » .

## هذا الزى المغربى

واقتربت أعياد الميلاد عام ألف وأربعمائة ميلادية ، فتوجه  
« ابن خلدون » إلى زيارة بيت المقدس ، وشاهد كنائسها ،  
وصلى في المسجد الأقصى ، وعند صخرة القبة ، وزار بيت  
لحم ، والخليل ، وغزة ، وعاد ليكتب مشاهدته في وصف

دقيق ، في كتابه « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً  
وغرباً » ، والذي جعله ذيلاً ( خاتمة ) لكتابه « العبر » .

ولم يكذ يستقر بمصر ، حتى عزل من منصبه كقاضٍ  
للقضاة ، بسبب دسائس منافسه « ابن الخلال » ، فعاد  
لتدريس الفقه والحديث . آنذاك دعاه السلطان « الناصر » إليه ،  
وقال له :

— يا ابن خلدون . الناس يأخذون عليك ، حرصك على  
زيك المغربى هذا . وللعلماء في مصر زى خاص بهم ، شارك  
أبى في تصميمه بنفسه . فكف عني وعنك استنكارهم لهذا  
الزى .

فقال له « ابن خلدون » .

— يامولائى . العبد عند الله بقلبه وعمله . والمسلم بقوله  
وسلوكه . وقد ألفت زى هذا وألفنى . والإسلام لا يفرق بين  
الناس بأزيائهم ، ولا ألوانهم .

فقال له السلطان غير راض عنه .

— كما تشاء يا ابن خلدون . كما تشاء .



## بغلة تيمورلنك

وجاءت الأتباء إلى مصر ، بانقضاض « تيمورلنك »  
بجيوشه على الشام ، واحتلاله لحلب ، وزحفه إلى دمشق ،  
فسارع السلطان « الناصر » إلى الخروج بجيوشه ، لصد غارات  
التتار ، ومعه علماء مصر ، وبينهم « ابن خلدون » .

واشتبك جُند مصر مع جيش التتار ، في معارك صغيرة ،  
خارج دمشق ، وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين . لكن  
« الناصر فرج » سارع بمغادرة معسكره ، عائداً إلى مصر ،  
ليواجه مؤامرة من بعض الأمراء ، لخلعه عن عرش مصر .

ودعى العلماء لمقابلة « تيمورلنك » في معسكره ،  
والتفاوض معه على الأمان لأهل دمشق . ولم يجد بينهم « ابن  
خلدون » ، فعث إثر انصرافهم في طلبه . وصحبه نائبه « شاه  
ملك » إليه ، فقدم له « ابن خلدون » مصحفاً ، وسجادة  
للصلاة . فقبلهما .

سأله « تيمورلنك » طويلاً عن أحوال المغرب ، واستكتبه  
صفحات عن جغرافية المغرب وتاريخه ، فأدرك عزمه على غزو  
المغرب يوماً ، واعتذر له بحاجته إلى كتبه ، وهي في مصر ،





فأذن له بالسفر ، والعودة إليه ، ومعه هذه الكتب . وأهداه  
بغلة ، مالبث أن اشتراها منه ليعطيه مآلاً ، في مقابلها .

وفي طريق عودته إلى مصر ، أغارت عليه هرة ومن معه  
جماعة من قطاع الطرق ، نهبت كل مامعهم ، وتركهم يمشون  
بلا نعال ، ولا مال ، ولا ثياب تذكّر ، إلى أن أسعفهم بعض  
أعراب سيناء بالثياب ، والنعال ، وبعض المال .

وإثر وصوله إلى مصر ، سارع بالكتابة إلى سلطان  
المغرب ، يحذره من نوايا تيمورلنك ، وسلم ثمن البغلة لبنت  
المال في مصر ، حتى لا يظن أحد أن « تيموراً » قد رشا .

لم يضع أحد من علماء الغرب لبنات جديدة ، في علم  
الاجتماع ، وفلسفة التاريخ ، سوى العالم « أوجيست  
كونت » ، في منتصف القرن التاسع عشر ، أي بعد « ابن  
خلدون » بأربعة قرون ونصف قرن ، وظن حين مزج بين  
حصار كل سابقه ، أنه هو منشيء علم الاجتماع . وأعاد إليه  
الفضل علماء غربيون ، وبينهم : « كولوزيو » ، و « لودفيج  
جيميلوفتش » ، و « فارد » و « شميث » الذي يقول : « إن  
العلماء الذين وضعوا أساس علم الاجتماع من جديد ، لو كانوا

قد اطلعوا على « مقدمة ابن خلدون » في حينها ، واستعانوا بكل  
الحقائق التي كان قد اكتشفها ، لتقدموا بهذا العلم الجديد ،  
بسرعة أعظم مما تقدموا به فعلاً » .

وفي منتصف القرن التاسع عشر ، طبعت « مقدمة ابن  
خلدون » مرتين ، مرة في القاهرة ، ومرة في باريس ، وكانت  
طبعة باريس تنقص فصلاً ورد في طبعة مصر ، وتزيد أربعة عشر  
فصلاً لم ترد في طبعة مصر ، وجمع الدكتور « علي عبد الواحد  
وافي » الطبعتين ، وحققهما ، في طبعة صدرت بالقاهرة .

في فجر اليوم الأول من شهر رمضان ، عام سبعمائة  
واثنين وثلاثين للهجرة ، ألف وثلاثمائة وإحدى وثلاثين  
للميلاد ، ولد « عبد الرحمن بن خلدون » .

وفي فجر اليوم السادس والعشرين من شهر رمضان ، عام  
ثمانمائة وثمان للهجرة ، ألف وأربعمائة وستة للميلاد ، لقي « عبد  
الرحمن بن خلدون » وجه ربه ، عن ست وسبعين سنة .  
وانطفأت بوفاته سرج مصابيح حياة وثابة ، مليئة بالنشاط ،  
والمؤلفات . وسارت القاهرة في وداعه : العامة ، والعلماء ،  
والقضاة ، والأمراء .



وَدُفِنَ جُثْمَانُ الْمَفَكَّرِ الْعَظِيمِ بِمَقَابِرِ الصُّوفِيَّةِ ، خَارِجَ بَابِ  
النَّصْرِ ، فِي اتِّجَاهِ حَيِّ الرِّيدَانِيَّةِ ( العباسية ) .

وَفِي عَامِ أَلْفٍ وَتِسْعِمَائَةٍ وَوَاحِدٍ وَسْتِينَ مِيلَادِيَّةٍ ، أَقَامَ  
« مَرْكَزُ الْبُحُوثِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ » بِالْقَاهِرَةِ . مِهْرَجَانًا عِلْمِيًّا لَذَكَرَى  
« ابْنِ خَلْدُونِ » شَارَكَ فِيهِ عِلْمَاءٌ مِنْ تَسْعِ دَوْلِ عَرَبِيَّةٍ وَأَجْنِبِيَّةٍ .

وَفِي مَيْدَانِ النَّبَاتِ ، بِمَدِينَةِ الْأَوْقَافِ بِالْقَاهِرَةِ ، أُقِيمَ تُمَثَالُ  
لَاِبْنِ خَلْدُونِ ، أَمَامَ هَذَا الْمَرْكَزِ نَفْسِهِ ، وَتَخْلِيدًا لِذِكْرِهِ ، غَيَّرَتْ  
مِصْرُ اسْمَ « مَيْدَانِ النَّبَاتِ » إِلَى « مَيْدَانِ ابْنِ خَلْدُونِ » ، فَمَا  
أَكْثَرَ نَبَاتَاتِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي زَرَعَهَا لَنَا فِي حَيَاتِهِ « ابْنُ خَلْدُونِ » ،  
عَنْ حَضَارَةِ الْإِنْسَانِ ، وَمُجْتَمَعَاتِ الْبَشَرِ .

وَفِي « تُونِس » لَايَزَالُ يَبُتُّ « آلُ خَلْدُونِ » قَائِمًا ، تَشْغُلُهُ  
إِلَى الْيَوْمِ مَدْرَسَةٌ لِلدِّرَاسَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْعُلْيَا ، وَعَلَى الْبَيْتِ لَاِفْتَةٌ  
تَحْمِلُ اسْمَ « ابْنِ خَلْدُونِ » .

وَفِي شَارِعِ كَبِيرِ بَتُونِس ، يَرَى الزَّائِرُونَ تُمَثَالًا ضَخْمًا لِابْنِ  
خَلْدُونِ ، تَخْلِيدًا لِذِكْرِهِ بَيْنَ الْأَجْيَالِ .



## ابن خلدون

أبو علم الاجتماع وفلسفة التاريخ . عاش في القرن الرابع عشر الميلادي . وتنقل بين دول الشمال الأفريقي والشام والأندلس . عمل وزيراً وسفيراً وقاضى قضاءً وشيخاً للصوفية وعالم حديث . كتب رسالة في المنطق وشرح آراء ابن رشد وألف موسوعة تاريخية ، كتب لها مقدمة خالدة

عرفت باسمه ، فسرفيها نشوء  
ال عمران وتطور الاقتصاد والحضارة  
ورقى الأمم بالوقائع والمنطق  
والبراهين . وسبق ابن خلدون  
بهذه المقدمة علماء الاجتماع  
بأربعة قرون . إنها قصة تشير  
الفخار ، يقرؤها الصغار والكبار

صدر من هذه السلسلة :

- |                  |                |
|------------------|----------------|
| ١ - ابن النفيس   | ١٠ - الإدريسي  |
| ٢ - ابن الهيثم   | ١١ - الدميري   |
| ٣ - البيروني     | ١٢ - ابن رشد   |
| ٤ - جابر بن حيان | ١٣ - ابن ماجد  |
| ٥ - ابن البيطار  | ١٤ - القزويني  |
| ٦ - ابن بطوطة    | ١٥ - ابن يونس  |
| ٧ - ابن سينا     | ١٦ - الخازن    |
| ٨ - المنارابي    | ١٧ - الجاحظ    |
| ٩ - الخوارزمي    | ١٨ - ابن خلدون |

مركز الأهرام للترجمة والنشر

مؤسسة الأهرام

التوزيع في الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع

ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر